

محمد المورياحي

هدية عيسى بن هشام

سليمان لسليمان ، ورفعه سنّمار للنعمان ؛ وأين شمرايح ثبير ، من سنام البعير ،
ومعارج الجبال ، من مدارج الشمال ، لا بل أين البحر العباب ، من لامع
السراب ، وأجرام الكواكب ، من بيوت العناكب ؟

وشاهدنا المارّة يتسابقون في هذا الموقف المتلاطم ، والمأزق المتزاحم ، من
كل شيخ وكهل وصبي وطفل ، وفتى وفتاة ، بين ركيان ومشاة ، والألوف من
صنوف العجل تحترق صنوف الناس ، وتنفذ بينهم نفاذ السّهام عن الأقواس ،
طائرة بقوة الكهرياء أو البخار أو الأفراس .

ولما لم يسابقهُنَّ شيءٌ

من الحيوان سابقن الظلّالاً

وكّل سائر منهم في اضطراب العصفور ، وتلفت القطا المذعور ، إن خاتنه
لفتته ، أدركته منيته ، وإن عثرت قدمه ، هريق دمه ، وإن شمع شاخ بأنفه ، وقع
في حتفه ، فهم يتلمّسون شاكليتي الطريق كما يتلمّس الشاطئ الغريق ، والخوانيب
على الجانبين متبرجة ببدايع البضائع ، ونفائس الصنّاع ، تغوي الزاهد فيشتبهها ،
وتغري الشّحيح فيشترها ، والحانات من بينها ممتلئة بالنفوس ، مشحونة بالجلوس ،
في يد كل واحد منهم كأس الصّهباء ، وفي الأخرى جريدة المساء ، ونحن في هذا
الموقف تكاد تطيش منا العقول ، من هول الدهش والدّهول ؛ وتطير منّا الألباب
من شدة الوجل والاضطراب :

في ساحةٍ لو أنّ لقماناً بها

وهو الحكيمُ لكانَ غيرَ حكيمٍ

ومال بنا طلب الراحة ، إلى حان في تلك السّاحة ، فلم نجد به مكانا
خاليا من الرّحام ، فعكفنا مدة واقفين على الأقدام ، وكدنا نذهب عنه آيسين ،
لولا أن تحرك بعض الجالسين ، فذهبوا لشأنهم ، وخلفانهم في مكانهم ، وجلسنا
في هذا المأمن نتصّفح وجوه الحاضرين ، وأجناس المارّين ، فإذا عدد ربات الحجال
يربو على عدد الرّجال ، من كلّ ذات حسن وجمال ، وتيه ودلال ، وقد متأوّد ،
وخذ متورّد .

باريس

قال عيسى بن هشام : سبحان من لا تجري الأمور إلا بتقديره ، ولا تنفذ
العزومات إلا بتيسيره ، فقد يسر الله لنا الرّحلة إلى الديار الأوربية ، لنشهد مظاهر
المدنية الغربية ، وبلغنا من سفرنا المدى ، فألقينا بباريس العصا ، وشرعنا نجوب منها
الطّرفات الجامعة والسّاحات الواسعة ، فلا القبائل تدعى وتهرع ، ولا الجيوش
تحشد وتجمع ، ولا الموتى وهم ينشرون ، ولا الخلق وهم يحشرون ، يضاهاى ما القوم
فيه من ازدحام واقتحام ، واصطدام والتحام ، متدفّقين في سيرهم تدفق السّيل ،
تحت أضواء محت آية الليل فلا ليل ، يخشى فيها على الأبصار ، أن تعشو من شدّة
الأنوار ، وربّما اتخذت بها الدّبكة فأخذت في الصّباح إيدانا بانبلاج الصّباح .
فإذا نظرت إلى الشّوارع من العلوّ ، لم تبال بالغلوّ ، إن قلت بحر
مسجور ، قام عليه شاطئان من نور ، وإذا أبصرته من أسفله عند أوله ، قلت
أسراب الدّو ، تصعد إلى الجوّ ، بين الكواكب الزهراء ، من كرات الكهرياء ،
والبيوت عن حافتيه تشارف جوّ السّحاب ، وتحاول أن تعلق من السماء
بأسباب ، فارة باسقة ، متلاصقة متناسقة ، كأنها في انتساقها سطور الخطّ ،
والأزهار على جذرائها شكل ونقط ، فأين منه ما بناه لفرعون هامان ، وشاده جنّ